الفصل الثاني

المسيحية والامبراطورية الرومانية

رغم أن الامبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع قد أصابها التفكك والانحلال فى جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، حتى بات من الواضح أنها تسير فى طريق الأفول، إلا أنها من ناحية العقيدة والحياة الروحية قد سلكت طريقاً مغايراً لذلك تماماً، فقد ازدهرت الحياة الدينية بأرجائها فى نشاط وحيوية بالغين، بشكل يطابق الحقيقة المعروفة فى التاريخ، من أن الناس فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية، يتجهون دوماً نحو القوى الروحية ويتعلقون بها، أملاً فى الخلاص والنجاة. ومن المعروف أن هذين القرنين شهداً انتشاراً سريعاً للديانة المسيحية، إلى جانب ما كان موجوداً من العبادات الوثنية(١).

والجدير بالذكر أن الديانات الوثنية المحلية التى كانت منتشرة فى أرجاء الأمبراطورية لم تشبع رغبة الأهالى، ولم تهدئ من خلقهم الروحى، لأنهم رأوا فيها مجرد رموز شكلية لا تثير الحماس الدينى، ومن هنا أخذوا يتطلعون إلى ديانة تخلصهم من أدران الخطيئة، وتعوضهم شقاء الحياة ومصاعبها، وكان أن وجدوا بغيتهم فى الديانات الوافدة من الشرق. ومن أهم تلك الديانات التى وجدت تجاوباً عجيباً منهم، وأعظمها في نظرهم، ديانة الأم الكبرى الفريجية كيبيلى Cybelle من آسيا الصغرى، وديانة ميثراس Mithras من فارس، وديانة إيزيس من مصر. وقد عرفت تلك الديانات بالديانات الغامضة، لأن طقوسها كانت سرية، بمعنى أنه كان لابد من توفر شروط خاصة فيمن يريد اعتناقها، فإذا اجتاز مرحلة القبول اطلع على أسرار طقوسها، ولا يجوز له أن يبوح بها لغيره. ورغم أن كل ديانة من تلك الديانات قد اختلفت فى طقوسها وشعائرها عن

(١) Painter, A Hist. of the Middle Ages., p. 11.; Jones, The Decline of the Ancient World., p. 24.

الأخرى اختلافاً واضحاً، إلا أنها جميعاً اشتركت فى ملامح وسمات عامة، أرضت حاجة المواطنين الروحية[١]. وهنا نلاحظ أن الأمبراطورية الرومانية نظرت إلى جميع الديانات الأجنبية نظرة التسامح، طالما أنها لم تكن تحدث انقلاباً فى مركز العبادات الرومانية السائدة من ناحية، وإذا كانت مأمونة العواقب من الوجهة السياسية من ناحية أخرى، وإذا كان مرغوباً فيها من الوجهة الخلقية من ناحية ثالثة. ومما يذكر فى هذا المقام أنه منذ عصر أوغسطس (٢٧ ق. م. – ١٤م) ظهر شكل جديد من أشكال الديانات، وهو عبادة الأمبراطور، وقد لقيت تلك العبادة فى شرق البحر المتوسط استجابة تلقائية، لأنه لم يكن هناك حد فاصل بين الإله والإنسان، أما فى روما، فإن الأمر كان مختلفاً، إذ أن فكرة الألوهية بأى معنى من المعانى لرجل على قيد الحياة كانت فكرة بعيدة عن الاستحسان، لا تتفق مع التقاليد السائدة؛ وإذا تمعنا قليلاً فى عبارة الأمبراطور لوجدنا أنها كانت تعبر عن الولاء للمواطن الأول، ولحكومة روما، وللأفكار التى تتعلق بها[٢].

وعلى أى حال، فقد دخلت ديانة كيبيلى روما سنة ٢٠٤ ق.م، وظلت منذئذ تحت رقابة لجنة تسمى لجنة الخمسة عشر المكلفة بالاشراف على العبادة العامة، ولم يسمح لها بالتعبير عن نفسها تعبيراً كاملاً إلا فى القرن الثالث الميلادى، شأنها فى ذلك شأن الديانات الأخرى الوافدة من الشرق. وقد صاحبت تلك الديانة ترتيلات ورقصات غامضة، وتميزت طقوسها بالقصف والعربدة، وفى القرن الثانى الميلادى أحرزت تلك الديانة شعبية هائلة، وانتشرت بسرعة بالغة فى أفريقية، والغال، وايديا، وفريجيا، وإيطاليا، وغيرها من الأقاليم[٣]. وكان يجرى الاحتفال بتلك الديانة فى الربيع، فإذا أقبل عيدها الربيعى، صام أنصارها وصلوا، وحزنوا لموت أتيس Attis حبيب كيبيلى وقرينها، وجرح كهنتها سواعدهم، وشربوا دماءهم، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب. فإذا كان

(١) Painter, op. cit., pp. 11 - 12.

(٢) Barrow, The Romans., pp. 143 - 146.

(٣) Lindsay (T.M.), "The Triumph of Christianity", in Camb. Med. His., Vol. I., p. 90.

اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهالى المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد، وفى آخر يوم من أيام الاحتفالات تحمل صورة الأم العظمى كيبيلى فى موكب للنصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى روما باسم «أمنا» Nostra Domina(١).

أما ديانة ميثراس الوافدة من فارس، فقد فاقت مثيلاتها من الديانات الغامضة الأخرى. فميثراس الإله النكر الخالد الذى هزم الموت إلى الأبد، أوجده أهورامزدا Ahuramazda خالق الحياة. وقد وقف ميثراس إلى جانب أهورامزدا إله الخير فى صراعه الأبدى مع أهريمن Ahriman إله الشر. وعرف ميثراس أيضاً كإله للنور والحق والطهر والشرف، وكان يقال أحياناً أنه هو إله الشمس الذى يقود الحرب ضد أهريمن إله الباطل والظلمة. والميثرائية بهذا لا تخرج عن المرحلة المتأخرة من عبادة زرادشت، التى تتلخص تعاليمها فى أن العالم نشأ عن أصلين هما : النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر. والجدير بالذكر أن روما لم ترث ديانة ميثراس من فارس مباشرة، بل عن طريق آسيا الصغرى، حيث كان أهم مراكز عبادتها فى طرابيزون. وقد انتشرت عبادة ميثراس انتشاراً واسعاً فى الغرب الأوربى خلال القرنين الأول والثانى للميلاد، واحتلت مكانة مرموقة فى روما العاصمة، كما أنها انتشرت أيضاً فى الموانىء والمراكز التجارية مثل الاسكندرية وبيرايوس وقرطاجنة ولندن(٢). وقد تركت الميثرائية أثراً واضحاً فى نفوس الجند الذين كانوا يفضلونها على غيرها، ذلك أنها كانت حامية لهم، تبعث فى نفوسهم الأمل والقوة والشجاعة والصدق والأخوة، ولم يأت القرن الثالث إلا وكانت غالبية الجيش الرومانى من أتباعها، وظهر ميثراس «الشمس التى لا تغلب» على العملات فى صورة فارس. غير أن الميثرائية واجهت منافساً خطيراً لا سبيل إلى مقاومته، وهو الديانة المسيحية،

---

(١) ديورنت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣، ص ١٤٧.

(٢) Grant (Michael), The World of Rome., (London, 1960), pp. 168 - 171.

التى رحبت بالنساء كأتباع لها يجدون راحتهم النفسية من خلالها، على خلاف الميثرائية التى قصرت عضوية أتباعها على الذكور دون الإناث[١].

أما الإلهة المصرية إيزيس، فقد لقيت من التكريم أكثر مما لقيته ديانة كيبيلى، وقد عرفت شعوب البحر الأبيض المتوسط كلها كيف مات أخوها وزوجها أوزوريس (سيرابيس) إله الخير بعد أن دخل فى صراع مع أخيه «ست» إله الشر، وإخلاص إيزيس لذكراه، وتجوالها فى العالم القديم تجمع بقاياه من شرق الأرض وغربيها. وتشير الأسطورة إلى ما أنطوت عليه قصة الإلهة إيزيس، الأم الحزينة والزوجه الأمينة، من الحنو والرأفة، وما أختصت به طقوسها من الرقة، وما اشتملت عليه صلواتها المسائية من أعمال البر والخير المشفوعة بالرحمة والشفقة؛ هذا وقد رحبت ديانة إيزيس بجميع الناس، فشملت دائرتها الرجال والنساء، بعكس الميثرائية التى لم ترحب بالنساء[٢]. وقد انتقلت ديانة إيزيس إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد، على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من الجهات المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية؛ ومما يسترعى الانتباه أن غالبية أتباع الإلهة المصرية كانوا عادة من العبيد والمعتقين والأجانب وفقراء الرومان، وإن ظهر بينهم فى بعض الأحيان سيدات من الطبقة الارستقراطية؛ وبارتقاء أسرة فلافيوس عرش الأمبراطورية يبدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما، ولدينا نقش من عصر فسباسيان Vespasian (٦٩ – ٧٩م) أول أباطرة تلك الأسرة، كتبه أحد العبيد تعظيماً لإيزيس التى لا تقهر Isis Invicta، وتحمل نقود فسباسيان التى سكت فى روما وغيرها من المدن صورة إيزيس فى معبدها بساحة مارس[٣]. وقد شجع الأمبراطور دوميتيان (٨١ – ٩٦م) آخر أباطرة تلك الأسرة ديانة إيزيس، ومن

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١١.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣ ص ١٤٧ – ١٤٨.

(٣) عبد اللطيف أحمد على : مصر والأمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، (القاهرة ١٩٦٥)، ص ١٤٨ – ١٤٩.

أجلهـ بنى معبداً هائلاً لإيزيس وسرابيس[١]. وقبل أن ينتهى القرن الثانى الميلادى احتلت ديانة إيزيس مركز الصدارة فى الأمبراطورية الرومانية، ولقيت رواجاً عالمياً، وقدر لها أن تتفوق على المسيحية قبل اعتراف قنسطنطين بها، وخير دليل على ذلك أن نفوذها الدينى وصل إلى أبعد نقطة فى بريطانيا[٢].

وعلى أية حال، تلك كانت أهم الديانات الوافدة الوثنية السائدة فى الأمبراطورية الرومانية فى القرون الأولى قبل الميلاد وبعده. ولقد ثبتت تلك الديانات دعائمها وتأصلت جذورها فى نفوس الغالبية العظمى من الشعب الرومانى ممثلة فى الطبقات الوسطى والدنيا التى وضعت آمالها فيها. على أنه يجب أن نشير إلى أن تلك الديانات الوافدة، رغم انتشارها الواسع، إلا أنها لم تستطع أن تفرض سيادتها كاملة على بقية العقائد المختلفة. ففى نفس الوقت اتجه بعض المثقفين من أفراد الطبقة الارستقراطية إلى الآراء والمذاهب الفلسفية، منهم من كان على مذهب المتشككة أو الشكوكيين[٣] Sceptics، والبعض الآخر كان على مذهب الغنوسية[٤] Gnosticism، كذلك كان البعض على مذهب

---

(١) Bury, A Hist. of the Roman Empire., p. 394.

(٢) Lindsay, op. cit., p. 90.

(٣) بدأت مدرسة التشكك بالفيلسوف بيرون Pyrron (٣٦٥ – ٢٧٥ ق.م)، ولد فى إيليس، وصحب الاسكندر إلى الهند فى شبابه، فرأى «فقراء الهنود، وأعجب بما كانوا يبدون من عدم مبالاة بالحياة وثبات فى الآلام، بيد أنه لم يكتب شيئاً ولا يعرف مذهبه إلا عن طريق تلميذه تيمون الهجاء، وكان الأخير يرى أن أصل البلاء هو تضارب المعرفة، وما من شئ يمكن معرفته على وجه اليقين، لذلك وجب على المرء أن يوقف حكمه، وألا يصدر أحكاماً جازمة أبدا، ويذكر أيضاً أنه لاشئ يهم، ولا حتى ما إذا كان يعيش أو يموت، وبهذا يبلغ الهدف : وهو الاتزان والطمأنينة ورباطة الجأش. أنظر : (تارن) الحضارة الهللينستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على، (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٣٥٦ – ٣٥٧).

(٤) الغنوسية وهى صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وقد نشأت قبل المسيحية. وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سراً، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة. وكانت الغنوسية تعدو على الأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير، مدعية تحويلها إلى معنى أعمق وترى الغنوسية أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وانما هو العرفان الحدسى التجريبى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف. وأما غايتها فهى الوصول إلى معرفة الله على هذا النحو، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة. أنظر : (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٤٤).

الفلسفة الرواقية Stoicism، وهى أكثر الفلسفات رواجاً وواقعية، ولها الغلبة على سائر الفلسفات، لأنها تتفق مع الأخلاق والمثل الرومانية : الإقدام، والرجولة، والثبات عن طريق القوة الروحية، وسيطرة المرء على نفسه، وإخضاع الشهوات للعقل، ومقاومة الظلم، وتحدى الطغاة، والتجلد فى وجه الخطوب، ومقابلة الموت بصدر رحب، وتجنب ما وراء الطبيعة. والحق أن الرومان كانوا رواقيين قبل أن يسمعوا عن المذهب الرواقى بزمن طويل. ويرجع المذهب الرواقى إلى مؤسسه زينون (٣٣٦ – ٢٦٤ ق.م) الذى ولد فى كيتيوم Citium من أعمال قبرص، عاش فى أثينا يعلم الناس، ودعى وأصحابه بالرواقيين، لأنه كان يتحدث إلى سامعيه فى بهو عام ذى أعمدة هو السقيفة أو «الرواق» Stoa، وكان مستمعوه كثيرين معجبين بسمو أخلاقه. وقد أفاد زينون من المذاهب الفلسفية الإغريقية المنتشرة آنذاك، بيد أن الفضل يرجع إليه فى تأسيس مدرسة للأخلاق تختلف اختلافاً بينا عن غيرها من المدارس. فأهم ما نادت به الرواقية مبدأ الأخوة بين البشر أجمعين، فالناس يجب أن يكونوا جميعاً متساويين، لا فرق بين حر وعبد؛ وقد أثرت الرواقية فى شعور الرومان على مر العصور، أفاد منها المفكرون المسيحيون منذ القرن الثانى بما جاءت به من تفصيل القول فى الفضائل والرذائل، وفى صفات الله، وفى العناية الإلهية. كما نجد لها صدى فى كتابات الفيلسوف سينيكا Seneca والأمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠)[١]. والجدير بالذكر أن الرواقية الرومانية كانت تختلف عن الرواقية الإغريقية، ذلك أن الرومانى لم يكن من مبادئه اعتناق أية فلسفة كما وصلت إليه، سواء كانت فيما وراء الطبيعة أو أخلاقية أو سياسية، ولكنه كان يطوعها طبقاً لميوله ومعتقداته. وينبغى الإشارة إلى أن الرومانى كان عازفاً عن متابعة المسائل الفلسفية التى تتناول ما وراء الطبيعة، مؤكداً اهتمامه بالدرجة الأولى بالعمل ودوافعه وقدراته، وإضفاء طابعه على ما يقوم باقتباسه[٢].

---

(١) Lyon (Bryce) & Herbert (H. Rowen) and Hamerow (Theodore S.), A Hist. of Western World., (U.S.A., 1974), Vol. I., p. 61;

تارن، الحضارة الهللينستية، ص ٣٥٠ – ٣٥٦.

(٢) Barrow, The Romans., pp. 151 - 158.

ثم ظهرت الديانة المسيحية فى أفق الحياة الروحية بتعاليم أعطت الأمل والنور للمواطنين الرومان، وسط دياجير البؤس والشقاء التى غلفت حياتهم. والحق أن ما تميزت به تلك الديانة من قوة الإيمان جعلها تتفوق على غيرها من العبادات الشرقية الغامضة، ذات الطقوس السرية، فكما رأينا من قبل أن ديانة ميثراس حرمت على النساء دخول دائرتها ومزاولة طقوسها، وقدست ديانتا كيبيلى وإيزيس النساء والأمومة على حساب الآخرين، أما المسيحية فقد أتت من أجل جميع البشر، ذكوراً وإناثاً. ولا ريبَ أن قصة المسيح الرائعة، وما لقيته من آلام وعذاب لا يمكن مقارنتها بما جاءت به المذاهب الفلسفية الإغريقية، التى لم ترض أفكارها إلا صفوة المثقفين من الطبقة النبيلة الارستقراطية، فى الوقت الذى لم تشبع فيه رغبات العامة الروحية[١]. وأخيراً ينبغى ألا نغفل أن المسيحية التى أعلنت زيف كل الديانات الأخرى، استطاعت أن تقاوم من منطلق هذا المبدأ، عبادة الأمبراطور التى شجعلها الأباطرة الرومان وساندوها بنفوذهم لتنفيذ أغراضهم السياسية. على أن المسيحية إذا كان قد كتب لها النصر على بقية الأديان. فإن ذلك كلفها الكثير، إذ قدر لها بعد صراع مرير مع أعدائها – اليهودية والوثنية – أن تقضى حوالى ثلاثة قرون مليئة بالعذاب والآلام والتضحيات، حتى استطاعت فى النهاية أن تفرد جناحيها على الأمبراطورية الرومانية.

واليهود الذين رفعوا راية العداء فى وجه المسيحية كانوا دون شعوب الأمبراطورية الرومانية، هم الشعب الوحيد الذى ظل محتفظاً أشد الاحتفاظ بتقاليده وعقيدته الخاصة[٢]. وبداية كانت السلطات الرومانية متسامحة مع اليهود، آلت على نفسها حماية ديانتهم، وأعطتها ضمانات – ترجع إلى أيام يوليوس قيصر – بموجبها زاولوا شعائرهم الدينية فى حرية وأمن؛ كما أعطتهم الحق فى اتباع تقاليدهم الدينية، إذ من المعروف أن اليهودى لا يعمل أيام السبت

---

(١) Stephnson, Medieval Hist., pp. 42 - 43.

(٢) دوسن، تكوين أوربا، ص ٣٠.

من كل أسبوع، حيث يتخذه يوم عبادة وراحة، كما لا يمكن مقاضاته فى ذلك اليوم أيضاً، وجرى اعفاؤه من الخدمة العسكرية[١]، وسمح لليهود بإصدار عملة نقدية خاصة بهم، دون أن يطبع عليها صورة الأمبراطور. ورغم كل تلك الامتيازات التى منحتها روما لليهود، إلا أنهم قابلوها بروح انفصالية، وتكتل قومى، وتعصب دينى، وانعزال عن المجتمع[٢]، الأمر الذى بعث فى نفوس العناصر الأخرى الكراهية الشديدة لهم.

وقبل أن ينتهى القرن الأول الميلادى بلغ عدد اليهود فى العاصمة حوالى عشرين ألف، كانوا يشتغلون بالصناعات اليدوية وبالتجارة فى الحوانيت. وكان لهم عدد كبير من المعابد، لكل واحد منها مدرسته وكتبته، وعرف عنهم احتقارهم للديانات الوثنية، وامتناعهم عن الذهاب إلى المسارح الرومانية أو مشاهدة الألعاب، فضلاً عن فقرهم وما نتج عنه من قذارة، ولكن هذه الصفات لم تمنع الكثير من الرومان المثقفين من المناداة بإعجابهم بالديانة اليهودية التى كانت تدعو إلى وحدانية الله[٣]، معارضة فى ذلك الديانة الوثنية وعبادة الأمبراطور، ولذلك اتجه البعض منهم إلى الدخول فيها.

وقد بدأ الخلاف واضحاً بين اليهود والسلطات الرومانية عندما ارتقى كاليجولا عرش الأمبراطورية سنة ٣٧م، فقد أمر جميع أتباع الديانات القائمة آنذاك أن يقدموا قرباناً له، كما أمر رجاله فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل، ولكن اليهود أظهروا نفورهم الشديد من وضع تمثال منحوت لإمبراطور وثنى فى هيكلهم، مما أدى إلى بروز مشكلة حلها كاليجولا بموته. وفى عام ٧٠م ثار اليهود ضد السلطات الرومانية ثورة خطيرة فى جودايا Judaea، ولكن القائد الرومانى تيتوس رد على تلك الثورة بالعنف، فقتل معظم من كان فى أورشليم (القدس) من اليهود، واستباح أموالهم، ودمر هيكلهم، حتى كاد تيتوس أن يقضى

---

(١) Jones, op. cit., p. 25.

(٢) Barrow, op. cit., pp. 175 - 176.

(٣) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٢، ص ٣٠٦ – ٣٠٧.

على كل أثر لهم. ومن المؤكد أن الضربة التى أصابتهم كانت من القوة، بحيث شتتت شملهم وشردتهم فى جميع أنحاء الأمبراطورية[١]، ولكنها لم تمنعهم من إشعال نار الثورة مرة أخرى فى عامى ١١٥ – ١١٦م. وقد واجه الأمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨م) ثورة اليهود فى قوة وحزم، فقضى عليها، ومنع اليهود من القيام بطقوسهم الدينية علناً، وفرض عليهم ضريبة شخصية جديدة، وحرم عليهم أن يدخلوا بيت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام، ليبكوا فيه أمام خرائب الهيكل[٢].

وهكذا عانى اليهود من النفى والأهوال والتشريد ما عانوا، وحرم عليهم دخول المدينة المقدسة، وتلفتوا حولهم خائفين، فاقدين الثقة فى روما، يراودهم الأمل فى النجاة من العذاب الذى قاسوه على يد السلطات الرومانية. وكان يبدو فى نظر العديد من اليهود أن حكم روما جزء من انتصار الشر القصير الأجل، الذى سيقضى عليه إما بتدخل الله نفسه، أو أن يرسل الله إلى الأرض مخلصاً أو مسيحاً Messiah ليخلصهم من براثن الطغاة، ويرفع عنهم نير الذل والعذاب، وتقول أسفار الرؤيا أن هذا المنقذ – أو المخلص – لن يطول غيابه، وأنه حين ينتصر على الطغاة، سيرتفع إلى الجنة كل العادلين والفقراء والمظلومين، حتى من كان منهم فى جوف القبور، ليتمتعوا فيها بالنعيم الأبدى[٣]. ولكن أمل اليهود فى ظهور مسيح ينقذهم ويعيدهم إلى بيت المقدس، سرعان ما تبخر عندما أتى المسيح بديانة ليست كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه، ولكنها ديانة أضاءت حياة الناس جميعاً بما بعثت فيهم من أمل فى ملكوت الله المقبلة، وفى السعادة الدائمة بعد الموت، ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم. وكانت

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٤ – ١٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٤ – ١٩٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٩ – ١٩٣؛

Salmon (E.T.), A Hist. of the Roman World, 30 B.C. to A.D. 138., (Grea. Britain, 1974), pp. 324 - 325.

المبادىء السامية التى أتى بها المسيح كفيلة بأن تجعل اليهود يقاومونها على اختلاف شيعهم، وينظرون إلى رسالته بعين الحقد والكراهية وأخذوا ينالون من دعوته وأنصاره.

ومن المعروف أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ولد فى بيت لحم القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى القدس، خلال عهد الأمبراطور أوغسطس (٢٧ق.م – ١٤م)، وقد سمى المسيح بالاسم العادى المألوف «يسوع» Yeshua ومعناه معين يهوه. ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للمسيحية، ويصعب إدراك كيف اشتد عودها ونجحت فى الانتشار فى مختلف أنحاء الأمبراطورية. والحقيقة التى لاجدال فيها أن المسيحية ظلت تتمتع بالحرية فى أيامها الأولى ما يقرب من ثلاثين سنة، لأن السلطات الرومانية والناس لم يفرقوا آنذاك بين المسيحية واليهودية. ويرجع الفضل فى انتشار المسيحية فى وقت مبكر إلى جهود القديس بولس الذى نظم المجتمعات المسيحية، وحدد تعاليمها؛ وقد ساعدت أوضاع الأمبراطورية الرومانية على نجاحه فى مسعاه، إذ كان يسافر عبر طرق التجارة وشبكة المواصلات الرئيسية التى أبدعتها العبقرية الرومانية، بعد أن فرض السلام الرومانى عليها الأمن والطمأنينة(١). أضف إلى هذا أن سيادة اللغة اليونانية فى الجزء الشرقى من الأمبراطورية، واللغة اللاتينية فى الجزء الغربى منها، جعلا من السهل انتقال الأفكار والمعتقدات بين مختلف أنحاء الأمبراطورية، وبالتالى انتشار المسيحية ووصولها إلى أماكن بعيدة فى سرعة فائقة(٢). وقد أثار اليهود القلاقل ضد القديس بولس إبان قيامه بالدعوة للديانة المسيحية، فى الوقت الذى حرص فيه الموظفون الرومان على حمايته، باعتباره منشقاً على الديانة اليهودية، لأن السلطات الرومانية لم تميز آنذاك بين المسيحية واليهودية(٣). ويلاحظ أن الغالبية العظمى من أنصار المسيحية خلال انتشارها فى القرنين

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., Vol. I., pp. 86 - 87; Barrow, The Romans., P. 176.

(٢) سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١ ص ٣٥.

(٣) Barrow, op. cit., pp. 176 - 177.

الأول والثانى، كانت تضم أحط الطبقات فى المجتمع الرومانى، كالفقراء والعبيد والعمال، وإن كانت المسيحية لم تعدم قلة من الأنصار الأثرياء والمثقفين. وقبل أن يأتى القرن الثانى إلى نهايته، اتسعت دائرة أنصار المسيحية ممن ينتمون إلى الطبقات العليا مثل أعضاء من مجلس السناتو، وفرسان، وأطباء، وضباط فى الجيش، ومحامين بارزين، وموظفين كبار، وقضاة وغيرهم. وسلك الأبناء والزوجات نفس السلوك، فاعتنقوا المسيحية، بل كثيراً ما كانت الزوجات تسبقن أزواجهن للانضمام إلى صفوف المسيحية. وهكذا أخذت تقاليد المجتمع الرومانى ونظمه المألوفة فى الانهيار، وحلت مشاعر التسامح والتواضع محل المهانة والاحتقار، وهى سمات أخذ يتردد صداها فى ربوع الأمبراطورية بعد انتشار المسيحية(١).

غير أن سياسة التسامح التى أبدتها السلطات الرومانية حيال المسيحية فى أيامها الأولى لم تدم طويلاً، فقد انقلبت تلك السياسة إلى حملات اضطهاد واسعة قامت بها ضد المسيحيين. ويخطىء من يظن أن روما قامت باضطهاد المسيحيين بسبب عقيدتهم، فتلك مسألة لم تكن تعنيها فى قليل أو كثير، طالما لا تتعارض مع مقتضيات السياسة العامة للدولة، ولكنها احتفظت لنفسها بحق التدخل أو اتخاذ إجراءات عنيفة ضد أية ديانة تشكل خطراً على النظام العام أو الاخلاقيات العامة. ومن هذا المنطلق غيرت الأمبراطورية من سياستها عندما رفض أتباع المسيحية – مثلما رفض اليهود – تقديس الأباطرة وعبادتهم، وإحراق البخور أمام تماثيل الآلهة دليلاً على ولائهم للأمبراطورية. أضف إلى ذلك أن الدولة أحست بالانزعاج عندما اكتشفت أن أتباع الديانة الجديدة أعتبروا أن الدنيا زائلة وشبكة الفناء، على خلاف الوثنيين الذين كانوا يقدرون دنياهم وحضارتهم. ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين مواطنين يملؤهم الشر، وعنصراً خطراً فى المجتمع لابد من خضوعه للدولة، وبعبارة أخرى رأت فى المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على تقويض أركان المجتمع الرومانى ونظمه وتقاليده(٢).

---

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 95.

(٢) Painter, op. cit., pp. 11 - 13; Barrow, op. cit., pp. 178 - 180; Salmon, op. cit., pp. 320 - 323.

وقد عاشت القوتان – المجتمعات المسيحية والحكومة الرومانية – فى وئام فى أيام الأمبراطورية الأولى، ثم بدأ الصراع على عهد الأمبراطور نيرون (٥٤ – ٦٨م)، عندما اضطهد العديد من المسيحيين فى روما، وهو أول اضطهاد فى سلسلة الاضطهادات التى تميز بها تاريخ روما، وإن كان لا يمكن إقامة الدليل على أنه كان عاماً، وفى ذلك الاضطهاد الذى نال من المسيحيين فقد القديسان بطرس وبولس حياتهما فى عام واحد لعله عام ٦٤م، وكانت التهمة الموجهة للمسيحيين أنهم كونوا تنظيماً غير شرعى يتعارض مع سياسة الدولة، لابد من العمل على استئصاله والقضاء عليه. لقد وقعت الواقعة بالمسيحيين، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وتعرضوا لأقسى أنواع العذاب. من ذلك أنهم كانوا يلطخون بالقار، وتشعل النيران فى البعض منهم، ويعدمون حرقاً بشدهم على خازوق ليكونوا بمثابة مشاعل فى الألعاب الليلية بالحدائق الأمبراطورية وسيرك الفاتيكان، والبعض الآخر يلقى به إلى الوحوش الضارية فى مدرج أو ساحة الملاعب العامة[١]. وعلى عهد الأمبراطور دوميتيان (٨١ –٩٦م) وقع الأذى والاضطهاد بالمسيحيين مرة أخرى حتى بلغ الأمر أن وصف الكتاب المسيحيون ذلك الأمبراطور بأنه «ثانى الطغاة»[٢]. ولدينا أقدم وثيقة تاريخية تناولت اضطهاد المسيحيين، وتصور ما لاقوه من أجل العقيدة، وهى خطاب كتبه بلينى الأصغر Pliny the Younger حاكم بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى إلى تراجان (٩٨ – ١١٧م) جاء فيه أنه أطلق سراح كل الذين قدموا القرابين وأحرقوا البخور أمام تمثال الأمبراطور، أما أولئك الذين رفضوا وأصروا على مسيحيتهم، فقد نفذ فيهم حكم الاعدام[٣].

ومما يثير الدهشة أن البعض من الوثنيين كانوا على استعداد للتستر على أصدقائهم المسيحيين وإخفاء حقيقة عقيدتهم عن أعين السلطات الرومانية، كما أن حكام الولايات كانوا يحجمون – فى كثير من الأحيان – عن تطبيق العقوبات

(١) Salmon, A Hist. of the Roman World., pp. 181 - 182.

(٢) Ibid., p. 226.

(٣) Stephenson, op. cit., p. 44., Burry, op. cit., p. 446.

عليهم. والجدير بالذكر أن حركة الاضطهاد لم تكن عامة أو واسعة النطاق فى الأمبراطورية، إلا عند حدوث كوارث طبيعية أو قلاقل وثورات شعبية، أو إذا أراد حاكم ضعيف لا يتمتع بحب الجماهير أن يصرف الأذهان عنه. وكما يقول ترتوليان[١] أجرأ المدافعين عن المسيحية آنذاك : «فإذا فاض نهر التيبر على الأسوار أو نقصت مياه نهر النيل فلم تبلغ الحقول، أو أمسكت السماء عن المطر، وإذا زلزلت الأرض، أو حدثت مجاعة، أو انتشر وباء تتعالى الصيحات على الفورهاقفة : «فليلق بالمسيحيين إلى الأسد»، وفعلاً كانت تستجيب السلطات الرومانية للشعور العام الذى كان يلقى اللوم دوماً على المسيحيين. وفى تلك الأثناء كان هناك من المسيحيين من تنقصهم الشجاعة على احتمال البلاء، ولو أن الكثير منهم أعطوا المثل الرائع على التضحية واحتمال الشدائد؛ ومن المستحيل قراءة قصص البطولة والاستشهاد، دون أن تهتز المشاعر للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء، خاصة عندما ندرك أن مضمون هذه القصص عبارة «أنا مسيحى» Christianus sum أو «أنا مسيحية» Christiana sum، وكانت تلك العبارة تعرض قائلها لأبشع أنواع التعذيب والموت[٢].

وفى القرن الثالث الميلادى أخذت العلاقة بين الدولة والكنيسة طابعاً جديداً لم تألفه من قبل، فقد أفزع السلطات الرومانية ما وصلت إليه المسيحية من نفوذ واتساع سلطان، حتى أنها صارت قوة منظمة، وبمعنى آخر دولة داخل الدولة

---

(١) كونيتوس سبتميوس ترتوليان القرطاجنى Quintus Septimius Tertuilianus؛ ولد فى قرطاجنة – أو ضواحيها – من أبوين وثنيين حوالى سنة ١٦٠م، وتوفى حوالى سنة ٢٢٠. وكان والده قائداً رومانيا، ولما شب عن الطوق درس البلاغة والأدب فى روما، واهتم بدراسة الطب، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها إلى دراسة القانون، فبرع فيه، واشتغل بالمحاماة عاماً واحداً فى روما. وفى كهولته اعتنق المسيحية وتزوج بمسيحية، ورسم قسا. وقد دافع عن الدين المسيحى دفاعاً عظيماً مجيداً، ووضع عدة مؤلفات منها كتاب «دفاع» تناول فيه ما أحاط بالمسيحيين من ألوان الاضطهادات على ايدى الرومان، وكتاب «إلى الأمم» هاجم فيه الوثنية والفلاسفة. أنظر :
Glover (T.R.), The Conflict of Religions in the Early Roman Empire. Fourth ed., (London, 1910), pp. 307 - 322; Salmon, op. cit., p. 323.

(٢) Salmon, op. cit., p. 323.; بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ١٢٨ – ١٣٠.

(الأمبراطورية)[١]، تعارض العنف، وتأبى الانخراط فى الجيش الرومانى، ليس لأحد على أتباعها سطوة إلا الكتاب المقدس وطاعة الله. ويحسن بنا أن نكرر فى هذا المقام أن اضطهاد المسيحيين وإيقاع صفوف الأذى بهم آنذاك، ليس معناه أن ذلك كان يجرى باسم الدين، وإنما كان يجرى لصالح وحدة الأمبراطورية. ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح فى موقف الأمبراطور سبتميوس سيڤيروس (١٩٣- ٢١١م) تجاه المسيحية، إذ لم يكن معادياً لها فى أول الأمر، ولكنه أصيب بالهلع من جراء الزيادة السريعة فى أعداد المسيحيين، فأمر بتحريم تعميدهم، وفى مصر ملأ السجون بهم، ودفع بالبعض منهم إلى الجلادين، وألقى بالبعض الآخر إلى الحيوانات المفترسة فى ساحة قرطاجنة. وقد نهج الأمبراطور ديكيوس (٢٤٩ - ٢٥١) نهج الأمبراطور سبتميوس سيڤيروس فى إيقاع الأذى بالمسيحيين، وإن كان قد اتخذ إجراءات أشد عنفاً ضدهم، من ذلك أنه أوجب على كل مواطن أن يقدم القرابين والنذور وآيات الشكر للوثنية، وحصوله على شهادة بذلك يقدمها للسلطات الرومانية عند الحاجة، وكان الذى لا يقدم هذه الشهادة يعتبر مسيحياً. ومما يلفت النظر أن المرسوم الذى أصدره ديكيوس نجح فى إحداث ردة بين بعض المسيحيين، وفى خلق متاعب للكنيسة أثارتها إعادة قبول المرتدين. على أن بعض ضعاف النفوس سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة، على حين حصل البعض الآخر على شهادات بطريق الاحتيال[٢]. وما لبث عداء الحكومة أن ازداد، ففى سنة ٢٥٧م أمر الأمبراطور ڤاليريان بمصادرة أملاك الكنيسة، ونفى رجالها، وكان الاعدام نصيب قلة من الأساقفة الشجعان تحدوا تصرفاته؛ وبعد فترة وجيزة وقع ڤاليريان أسيراً فى أيدى الفرس فى عام ٢٦٠م، وارتقى ابنه جالينوس عرش الأمبراطورية، فلم يسلك سلوك أبيه، وبادر برفع الاضطهاد عن المسيحيين وإيقاف الهجوم عليهم، وأمر أن يرد إليهم ما صودر من ممتلكاتهم، وسمح لهم ببناء الكنائس وامتلاك العقارات.

---

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., p. 96.

(٢) Charlesworth, The Roman Empire., p. 162; Barrow, op. cit., pp. 181 - 184; جيبون، سقوط الأمبراطورية الرومانية، جـ ١ ص ٣٣ - ٣٤.

ومنذ ذلك الوقت تمتعت الكنيسة بسلام وهدوء داما أربعين سنة، حصل فيها المسيحيين على حرية ممارسة عقيدتهم، وشهدت الكنيسة طوال تلك السنين حركة نماء وازدهار لم تشهدها من قبل، الأمر الذى كان له بالغ الأثر فى ازدياد أتباع العقيدة، وانتشارها بشكل أكثر فى مجتمع الطبقة الارستقراطية(١).

وحيل ما لقيه المسيحيون من اضطهادات على أيدى الحكومة الرومانية، لايستطيع أى باحث أن يغفل الفظائع التى ارتكبها الأمبراطور دقلديانوس فى حق المسيحية، فما أن ارتقى العرش سنة ٢٨٤م، حتى هاله ما وصل إليه أمر المسيحية من نفوذ وعلو شأن، وراعه انصراف أتباع تلك الديانة عن عبادة الأمبراطور، وهو أمر رأى فيه تهديداً لسلامة الأمبراطورية وأمنها، ولذلك اعتزم محاربة العقيدة وإلحاق الأذى بأتباعها؛ ولم يكن دافعه إلى ذلك مقته للمسيحية، ولكن خشية أن يؤدى أهمال شأنها إلى هدم صرح المجتمع الرومانى. أضف إلى ذلك أنه كان من بين كبار موظفيه أعداء للمسحية، أشدهم بغضاً وعداوة لها مساعده جاليريوس الذى كان يحمل لقب قيصر. فقد أوحى إليه بجسامة الأخطار التى تهدد الأمبراطورية من قبل المسيحية، وشجعه على استخدام نفوذه من أجل إعادة الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة. وزادت مخاوف الامبراطور عندما اكتشف أن من بين قواته النظامية – ضباطاً وجنوداً – فى القصر الامبراطورى نفسه أنصاراً لتلك الديانة(٢). ومما أكد مخاوف الامبراطور وأثار حفيظته، تلك الأخطار الخارجية الممثلة فى الجرمان والفرس، لا سيما أن المسيحية كانت قد دخلت فارس، وتبين أن المانوية(٣) كانت تمت إليها بصلة قوية(٤).

---

(١) Jones, op. cit., p. 26.;

جيبون، سقوط الأمبراطورية الرومانية، جـ ١ ص ٤٥٧.

(٢) Downey, The Later Roman Empire., pp. 15 - 16.

(٣) تنسب المانوية إلى صاحبها مانى (٢١٦ – ٢٧٧م)، ولد فى ماردين بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته فى سن الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساسانى سابور الأول (٢٤١ – ٢٧٢م). والعالم عند المانوية قائم على أصلين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى مانى أن الخير والشر ممتزجان معاً فى الانسان، وأن المرأة هى السبب فى إيقاع الرجل فى الذنوب، فإذا =

(٤) أسد رستم، الروم، جـ ١ ص ٣٥ – ٣٦.

ومهما يكن من أمر، لم يطق دقلديانوس أن يرى فى المسيحيين جماعة منفصلة عن جسد الدولة، لا تخضع له. ولم يلبث أن أمر بتجريدهم فى الجيش من الرتب العسكرية وطردهم من صفوفه، وإقصائهم أيضاً عن الوظائف المدنية إلا إذا قدموا القرابين لجوبتر Jupiter Optimus Maximus الراعى التقليدى لمدينة روما؛ وأعقب ذلك أن أصدر مرسوماً فى نيقوميديا فى ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣م، تضمن إجراءات مشددة، بموجبها أغلقت جميع الكنائس، وهدمت بعد مصادرة أملاكها، وجمعت الكتب المقدسة وأحرقت، ومنعت إجتماعات المسيحيين، وقبض على رجال الدين منهم وزج بهم فى غياهب السجون؛ أما أولئك الذين قاوموا أوامر دقلديانوس، فقد أنزل بهم أبشع أنواع التنكيل والعذاب، وجرى الحكم بالإعدام على كل مسيحى تحدثه نفسه عقد أية اجتماعات لممارسة العبادة؛ وحرم المسيحيين من حماية القانون، الأمر الذى جعلهم يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم «عصر الشهداء»[١]، لكثرة عدد المستشهدين من جهة، ولشدة عنف الاضطهاد الذى تعرض له أتباع المسيحية من جهة أخرى. ومما يذكر أن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو عصر الشهداء[٢]. ويبدأ التقويم القبطى بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤م – وهو نفس اليوم الذى يوافق أول شهر تحوت، بداية السنة المصرية القديمة – ذكرى استشهاد العديد من المسيحيين. وعلى الرغم مما قام به دقلديانوس تجاه المسيحيين من إجراءات عنيفة، إلا أن ذلك لم يفت فى عضدهم،

= امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر الخير يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض مانى التوراة تماماً وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا وزرادشت والمسيح ويتضح من ديانة مانى أنها ديانة مركبة، أى أنه اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها. وظل مانى ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشى جلده بالقش. وقد انتشرت المانوية أول الأمر فى بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، فى الوقت الذى انتشرت فيه فى الغال وبريطانيا. أنظر: حسن بيرنيا، تاريخ إيران، ص ٣١٧ – ٣٢١؛ أسد رستم، الروم، جـ ١ ص ٤٧ – ٤٨.

(١) Jones, op. cit., pp. 36 - 37.

(٢) بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ١٥٨ – ١٥٩.

فقد استرخصوا الموت فى سبيل العقيدة، وأظهروا ألواناً من الشجاعة والصبر والبطولة والتضحية، جعلتهم موضع إعجاب المعاصرين بشكل أدى إلى اعتناق الكثير منهم المسيحية.

تغير موقف الأمبراطورية الرومانية من الديانة المسيحية تغييراً جذرياً باعتلاء قنسطنطين العرش، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م Edict of Milan اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الأمبراطورية. وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولى للأديان من الناحية الرسمية فى التاريخ، فغدا لكل مواطن الحق فى اختيار ديانته ومزاولة شعائرها بطريقته الخاصة دون أى ضغط من السلطات. ولا جدال أن ذلك المرسوم رفع الاضطهادات ووسائل التعذيب عن جميع المسيحيين، وأزاح عن كاهلهم القلق والجهد النفسى والمعاناة، ولم يعد الموظفون الجشعون يحتالون عليهم يهددونهم بالويل والثبور كما كان الأمر من قبل، وفى الوقت نفسه كفل لهم القانون الحماية الكاملة لأرواحهم ومبانيهم وممتلكاتهم. وينبغى التأكيد أن مرسوم ميلان لم يضع المسيحية فى وضع متميز أرقى منزلة من سائر الأديان الأخرى، ولكنه وضع مبدأ الحرية الدينية لتلك الديانة، بعد أن كانت ذات وضع غير معترف به من الوجهة الشرعية من جهة، وبعد أن كانت الديانات الوثنية هى الوحيدة المعترف بها من قبل الدولة من جهة أخرى(١).

وقد اختلفت الآراء حول الأسباب التى دفعت قنسطنطين إلى إصدار مرسوم ميلان. هل كان ذلك بسبب اعتناقه المسيحية؟ وهل كان اعتناقه المسيحية نابعاً من شعور داخلى واحساس دينى صادق؟ أو هل كان تحوله إلى المسيحية عملاً سياسياً بارعاً أملته الظروف القائمة آنذاك، بهدف الحصول على أنصار من المسيحيين؟ كل تلك الأسئلة مهما اختلف الباحثون فى الإجابة عليها، فمن المسلم

---

(١) Gwatkin (H.M.) & Dixie (M.A.), "Constantine and his City", in Camb. Med. Hist. Vol. I. p.5;

عمر كمال توفيق، تاريخ الأمبراطورية البيزنطية، ص ٣١.

به أنها تعكس الفرحة المفاجئة للكنيسة المنتصرة على أعدائها الوثنيين. وقد جاء في الروايات المعاصرة أن قنسطنطين رأى رؤيا قصها على مؤرخه وصديقه ومستشاره أوسابيوس (٢٦٠ - ٣٤٠م) Eusebius أسقف قيصرية في فلسطين، مفادها أنه إبان النزاع بين قنسطنطين وماكسنتيوس حول الوصول إلى منصب الأمبراطورية، وكان الأخير قد استولى على روما، ووصل الأمر إلى ضرورة وضع نهاية له بقيام معركة حاسمة تدور بين الطرفين. وطبقاً للأسطورة صار وضع قنسطنطين حرجاً، وبدا له أن الأحداث أثبتت عجز الآلهة الوثنية عن مساندة أنصارها خلال نضالهم من أجل الوصول إلي السلطة، وتذكر ما عرفه عن المسيحية من أبيه الذى نهج مع أتباعها نهج التسامح إعجاباً بمتانة أخلاقهم وصدق إخلاصهم، ومن ثم رأى - قبل عبوره جبال الألب إلى إيطاليا - فوق قرص الشمس الجانحة للمغيب صليباً من النور مكتوباً عليه in hoc signo vinces (By this Conquer)، أى «بفضل هذا تنتصر»، ويروى أن تلك الرؤيا في السماء أدهشت كل الجيش بأسره، بنفس القدر التى أدهشت به الأمبراطور نفسه؛ وفى تلك الليلة أيضاً ظهر المسيح فى رؤيا لقنسطنطين، أوصاه فيها أن يتخذ من الصليب راية وشعاراً له فى هجومه على عدوه ماكسنتيوس. ومما يروى أن قنسطنطين - بفضل تلك الرؤيا - استطاع إحراز النصر عليه خارج روما فى موقعة جسر ملڤيان فى أكتوبر سنة ٣١٢م، انتهت بمقتل ماكسنتيوس وإعلان قنسطنطين أوغسطسا[1]، حسب النظام الذى أوجده دقلديانوس. ومهما قيل من أن قنسطنطين قد انضم إلى صفوف المؤمنين بالمسيحية لأسباب سياسية أو دينية، فإن ذلك الأمر يعتبر حدثاً بالغ الأهمية، إذ بفضل الخطوة التى أقدم عليها كان من الواضح أن المسيحية فى صراعها مع الوثنية سيكتب لها النصر في النهاية، لاسيما إذا اعتنق امبراطور ما المسيحية. ولا يغيب عن البال أن أتباع المسيحية آنذاك، كانوا يمثلون أقلية ضئيلة بالنسبة لأنصار العبادات الأخرى، تألف معظمها من الطبقات الدنيا من المجتمع فى المدن، أما الأغلبية الساحقة من

(١) Jones, op. cit., pp. 39 - 40; Downey, op. cit., pp. 21 - 22.

طبقة السناتو والمثقفين فكانت وثنية، بالاضافة إلى أن الفلاحين ورجال الجيش – فيما عدا مصر وأفريقية – كانت وثنيتهم هى الغالبة[١]. وبفضل قنسطنطين – أو بالأحرى مرسوم ميلان– صارت المسيحية ديانة مرخصة religio licita، أفقدت الديانات الأخرى معظم نفوذها وقوتها[٢]، حتى يمكننا القول أن الدولة رغم إطلاقها مبدأ التسامح الدينى بإصدارها مرسوم ميلان كما أسلفنا القول، إلا أن اعتناق قسطنطين المسيحية جعل ميزان التسامح – من الناحية الواقعية – يميل ميلاً أقرب ما يكون للمسيحية، دون المساس بالوثنية. ومما يؤيد ذلك، أنه فى الوقت الذى منع فيه قنسطنطين المسيحيين من التعرض للوثنيين والاحتكاك بهم، نراه قد أمر بتدمير ثلاثة معابد شهيرة هى اسكلبيوس Asclepius فى إيجة، وهليوبوليس، وأفيكا Apheca فى فينيقيا، لما تزاوله من طقوس فاسدة. وعلاوة على ذلك بنى قنسطنطين عدداً من الكنائس الرائعة فى روما والقسطنطينية وبيت لحم ونيقوميديا وأنطاكية وغيرها وأوقف عليها المزارع الواسعة.

وينبغى علينا أن نتفهم أن وضع الأمبراطور المسيحى قد اختلف عن وضع أسلافه الوثنيين، فقد كان عليه أن يحكم مجتمعاً مغايراً، احتل فيه مكانة الأخ المسيحى لرعاياه، أما الأمبراطور الوثنى فله شخصيته التقليدية النابعة من المنصب الأمبراطورى، ولذلك ظلت العملات الأمبراطورية – لبعض الوقت – تحمل النقوش و لرموز الوثنية المألوفة، استناداً إلى أنه لازال امبراطوراً لنوعين مختلفين من الرعايا، وهم الوثنيون والمسيحيون؛ كذلك واصل قنسطنطين وخلفاؤه حتى عهد الأمبراطور ڤالنتنيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥م) وجراتيان (٣٧٥ – ٣٨٣)، حمل لقب الكاهن العظيم Pontifex Maximus[٣]. وكان من الممكن لو قدر لامبراطور وثنى أن يعتلى العرش بعد قنسطنطين مباشرة، أن يبدل الاتجاه الذى سار فيه قسطنطين تبديلاً تاماً. غير أن أبناء قنسطنطين نهجوا سياسة التسامح

(١) Jones, op. cit., p. 50.

(٢) Reid (J.S.), "The Reorganisation of the Empire.", in Camb. Med. Hist., Vol. I., p. 37.

(٣) Downey, op. cit., pp. 30 - 31.

تجاه المسيحية، فى الوقت الذى لقيت فيه الوثنية العنت والاضطهاد على أيديهم، وهدم العديد من معابدها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد وسعوا من دائرة الامتيازات التى منحت للكنيسة، بإعفاء رجالها من ضريبة الرأس Capitatio، وأعفى الأساقفة أيضاً من المثول أمام المحاكم العلمانية فى القضايا الجنائية، وجرت محاكمتهم أمام مجالس مؤلفة من زملائهم فقط(١).

على أن المسيحية رغم ذلك لم تعدم من هو كاره لها، فعلى قدر ما أيد قنسطنطين وأبناؤه المسيحية من قبل، وجدت الوثنية من أيدها بإخلاص وولاء. وخير صورة لذلك الامبراطور جوليان المرتد. وقد شجعه على القيام بخطوته تلك ما رآه فى الجدل الذى أثاره المسيحيون حول الثالوث وطبيعة المسيح، ومارآه فى تكالب رجال الدين المسيحيين على المناصب الكنسية(٢). وقد امتلأ صدره حماساً لإعادة الأمبراطورية إلى أيامها الأولى، أيام المواطن الأول، وكان يميل إلى التمسك بعبادة الأجداد التى تتمثل فى عبادات روما التقليدية، لأن هجرها يعتبر كارثة تؤدى بالامبراطورية. ولما كان متعلقاً بالثقافة الهيللينية، بعد أن سرى إلى قلبه حب عالم الفلسفة اليونانية، فقد أطلق على أنصاره الهللينيين، أما المسيحية فقد كانت فى رأيه ديانة بربرية سيئة، جعلت الرجال يغفلون عن القيام بواجباتهم، ولذلك أطلق على أنصارها الجليليين(٣) Galilaeans وهو اسم أقل تشريفاً لهم. وراح جوليان يقوم بإجراءات قمع شديدة ضد المسيحيين، بغية جذب الناس إلى ديانته، منها إبطال المراسيم التى سنت من قبل لمنع تقديم القرابين، والأمر بإعادة فتح المعابد الوثنية، وإرجاع الأراضى والممتلكات التى استولت عليها الدولة لتلك المعابد، أما المعابد الوثنية التى هدمها المسيحيون وبنوا على أنقاضها بيوتاً لهم، فقد أمر بإعادة بنائها على نفقة أولئك الذين انتزعوا أحجارها، الأمر الذى ألقى

---

(١) Jones, op. cit., p. 54.

(٢) إسحق عبيد، الأمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ص ٦٢.

(٣) كان جوليان يكره المسيحية ويحتقرها، ولا يطيق سماع اسم «المسيح»، ومن ثم راح يشير إلى المسيحيين بكلمة «الجليليين»، وهو اسم أقل تشريفاً لهم، إصراراً منه على عدم نكر لفظة المسيح.

على كواهلهم عبئاً جسيماً، كذلك أصدر تعليماته بهدم كنائس المسيحيين التى أقامت صروحها على أنقاض المعابد الوثنية، ورغبة منه فى إنعاش الوثنية وتثبيت وضعها، فقد منح أتباعها الوظائف والألقاب، فى الوقت الذى ألغى فيه الامتيازات التى تمتعت بها الكنيسة، ووهبها لكهنة معابده الوثنية(١). والحق أن محاولة چوليان إحياء أمجاد الوثنية تعتبر آخر المحاولات اليائسة التى كان نصيبها الفشل الذريع، ذلك أن الوثنية كانت قد ماتت فعلاً من الناحية الروحية، ولم يبق فيها رمق يجدد شبابها، أضف إلى هذا أن افتقارها إلى القواعد الأخلاقية التى تفردت بها الكنيسة جعلتها تلقى سلاحها، وتسرع الخطى نحو مصيرها المظلم.

ولم تلبث الوثنية أن تلقت ضربة قاصمة على يد الأمبراطور ثيودوسيوس العظيم (٣٧٨ – ٣٩٥)، الذى آثر نبذ سياسة التسامح الدينى، فأصدر مرسوماً سنة ٣٩٢ أعلن فيه بطلان العبادات الوثنية ومنع تقديم القرابين، وإحراق البخور، وإراقة الخمور، وممارسة الكهانة، ومعرفة الغيب، وما إلى ذلك من العادات والتقاليد الوثنية، ثم صادر معابد الوثنية التى غدت منذئذ متاحف فنية، كما صادر أملاكها على أن تؤول هذه إلى الكنائس والجيش الأمبراطورى(٢). وهكذا استخدمت الدولة من أجل إعلان شأن المسيحية نفس الأسلحة التى استخدمتها ضدها عندما كانت تساند الوثنية فى القرن الماضى، فعلى حين أنها قامت باضطهاد المسيحية من قبل حفاظاً على وحدة الأمبراطورية، نراها الآن تسعى حثيثاً لاستئصال شأفة الوثنية وأعداء المسيحية، بهدف الحفاظ على وحدة الأمبراطورية وبقائها(٣).

ولا جدال أن المسيحية خلال الخمسين عاماً التى تلت اعترف قنسطنطين بها، حققت الكثير من خطوات النجاح، ففى تلك الفترة شاهد المجتمع الرومانى

---

(١) Jones, op. cit., pp. 59 - 60; Downey, op. cit., p. 53.

(٢) Vasiliev (A. A.), Hist. of the Byzantine Empis, (Paris, 1952), Vol. I., p. 83.

(٣) السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٧.

نشأة أرستقراطية جديدة قامت على المسيحية متأسية فى ذلك بالبلاط والأسرة الأمبراطورية، ولكن الأرستقراطية القديمة التى نشأت فى أحضان الوثنية وألفت تقاليدها، ظلت – هى وغالبيته المثقفين – على وثنيتها. ومما يجدر ذكره أن الوثنية فى صراعها مع المسيحية من أجل البقاء، أظهرت حيوية تثير الدهشة، فلم تلق بسلاحها من أول جولة، بل ناضلت وظل الأمل يراودها فى استعادة نفوذها قرناً آخر من الزمن[١]. ويتضح ذلك إذا علمنا أن الأرستقراطية فى الجزء الشرقى من الأمبراطورية، التى كانت لاتزال تشغل المناصب العليا فى الحكومة، دأبت على حماية أتباع الوثنية. وفى القرن الخامس كان العديد من الشخصيات البرزة فى المجتمع – فلاسفة وأدباء وقواداً – على ما هم عليه من وثنية، وقد بقيت مدينتا آثينا وآخايا Achaia آخر معاقل الوثنية فى الشرق، لاسيما آثينا التى عرفت بأنها أعظم مركز للحياة العقلية فى القرنين الرابع والخامس، فأساتذتها وهم فى أغلب الأحوال على مذهب الأفلاطونية المحدثة[٢]، رفضوا اعتناق المسيحية فى عزم وإصرار، وظلوا مخلصين لتقاليدهم الوثنية إلى أن ارتقى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ – ٤٥٠) عرش الأمبراطورية، فمنعهم من القاء محاضرات عامة، مهدداً بالنفى كل من يعصى أوامره. وعندما وصل جستنيان إلى عرش الأمبراطورية سنة ٥٢٧م، عقد العزم على سحق آخر بقايا الوثنية فى الأمبراطورية، فأغلق مدارسها فى آثينا، وصادر الاعتمادات المالية المخصصة لرواتب الأساتذة، واضطهد الفلاسفة، الأمر الذى أدى إلى فرارهم إلى فارس، خشية تعرضهم

---

(١) يمكن تعريف الأفلاطونية المحدثة بأنها محاولة لوضع فلسفة دينية، وهى مذهب قام على أصول أفلاطونية، أتمه أتباعه فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. وقد تأثر المذهب باليهودية والمسيحية. وأبرز الأفلاطونيين المحدثين أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠م)، ولد فى ليقوبوليس من أعمال مصر الوسطى، ولم يشرع فى الكتابة إلا فى حوالى الخمسين من عمره. وقد كان أثر أفلوطين متصلاً عميقاً، ترجمت بعض رسائله إلى اللاتينية فى القرن الرابع، ووجد فيها القديس أوغسطين عوناً كبيراً. أنظر : (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٨٥ – ٢٩٧).

للسجن أو الموت، وظلوا هناك حتى حصل الملك الفارسى على وعد من چستنيان بمعاملتهم معاملة طيبة عند عودتهم إلى وطنهم(١).

آباء الكنيسة :

من المعروف أن المسيح عليه السلام وضع للناس أسلوباً للحياة، ولكنه لم يقم بمحاولة وضع أساس لنظام لاهوتى، فطالما كان أتباعه يعظون أناساً بسطاء غير متعلمين كان ذلك كافياً، وبمعنى آخر كان باستطاعة الفرد البسيط من الناس أن يشبع أحاسيسه وعواطفه ومشاعره بمعرفة قصة المسيح وحياته وآلامه. ولكن المثقفين من الرجال، أولئك الذين مارسوا طرق التفكير الكلاسيكى، أرادوا الوقوف على صحة العلاقة بين الله والمسيح فى نقاط محددة دقيقة، كما كانوا دائمى السؤال عن طبيعة الملائكة، وعن المقصود بالقول أن الخبز والنبيذ تحولا إلى لحم المسيح ودمه(٢)، وهل العذراء مريم أم للمسيح فى طبيعته البشرية أم فى طبيعته الإلهية، وغيرها من الأسئلة التى اختلفوا حولها. ومن الطبيعى أن الحاجة صارت ملحة للإجابة على تلك الأسئلة، لاسيما بعد أن أعلن قنسطنطين اعترافه بالمسيحية عام ٣١٣. ومهما يكن من أمر، فقد ألقى على عاتق مجموعة من رجال الدين الباحثين أطلق عليهم آباء الكنيسة The Church Fathers مهمة إيجاد

---

(١) Lindsay, op. cit., Vol. I., pp. 112 - 114;
يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٣٠١.

(٢) ورد فى أناجيل متى ومرقص ولوقا وصفا لعشاء السيد المسيح الأخير مع تلاميذه، ويصفه متى بهذه العبارة : «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : خذوا كلوا، هذا هو جسدى. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً : اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا». وقد طورت الكنيسة العشاء الربانى فى وقت مبكر جداً، فقد تطلب العشاء المقدس – أو التناول المقدس – أداء بعض الطقوس، الغرض منها تحقيق أهداف روحية. فالمؤمن وسط العشاء المقدس، يأكل قطعة من الخبز ويحتسى قليلاً من النبيذ من مائدة مشتركة تحولها قدرة الله، التى انتقلت فى خيط متصل إلى المسيح ثم إلى تلاميذه، ثم إلى رجال الدين، إلى مادة سماوية هى على التوالى جسد المسيح ودمه. وإذا كان سلوك المؤمن وقت التناول مسيحياً حقاً، فإن خطاياه السابقة بهذا العمل تحمى، ويظفر بالحياة الأبدية فى النعيم.
أنظر : (برنتن : أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ص ١٨٩ – ١٩٠).

لاهوت مسيحى يعمل على إرضاء الطبقة المثقفة فى المجتمع الرومانى. وأعظم أولئك الآباء أهمية كليمنت السكندرى (١٥٠ – ٢١٧م)، وأوريجين السكندرى (حوالى ١٨٥ – ٢٥٤)، وجيروم (حوالى ٣٤٠ – ٤٢٠)، وأمبروز (حوالى ٣٤٠ – ٣٩٧)، وأوغسطين (٣٥٤ – ٤٣٠). والجدير بالذكر أن أولئك الرجال كانوا على دراية حقة بأعمال ومؤلفات الفلاسفة الكلاسيكيين، ومن ثم أفادوا تماماً من أفكارهم وأساليبهم، الأمر الذى مكنهم من شرح الديانة المسيحية للمثقف بلغة وأفكار مألوفة لديه ترضى نزعته؛ ولما كانوا يرغبون فى التفوق على الوثنيين المثقفين، فقد عكفوا على اقتباس الكثير من المؤلفات الكلاسيكية، خاصة أفكار الأفلاطونية، التى كانت – من أوجه عديدة – مطابقة للأفكار المسيحية(١).

وسنحاول أن نلقى بعض الضوء على أولئك الآباء الذين دافعوا عن الكنيسة إبان أيامها الأولى، وأسهموا بآرائهم فى تثبيت أركانها، وتبيان سلطتها ونفوذها. وبداية ولد كليمنت السكندرى Clement of Alexandria وثنياً فى الأسكندرية، وفى رواية أخرى بأثينا؛ عرف الأسرار الوثنية والمذاهب الفلسفية، وانتهى بتفضيل الأفلاطونية، غير أنها لم تشبع حياته الروحية، فاعتنق المسيحية. ويرى كليمنت أن الفلسفة مفيدة للإيمان وليست ضرورية له، وهى تمهيد لابد منه للذين يصلون إلى الإيمان عن طريق الاستدلال؛ وكان يرى أيضاً أن واجب المسيحى المثقف يقضى عليه بالتفقه فى الدين، وأن الفلسفة خير أداة لتحقيق تلك الغاية(٢).

أما أوريجين Origen فهو تلميذ كليمنت السكندرى، درس عليه فى صباه، ثم حصل علمه بنفسه، ففاق أستاذه. وقد ولد بالأسكندرية من عائلة كانت وثنية ثم تنصرت، وكان فى السابعة عشرة من عمره عندما عصفت بالكنيسة المصرية اضطهادات الامبراطور سبتميوس سيڤيروس التى كانت السبب فى إعدام أبيه ليونيداس ومصادرة أملاكه، ثم اضطلع بمنصب رئيس المدرسة المسيحية

---

(١) Painter, op. cit., p. 15.

(٢) يوسف كرم، المرجع السابق، ص ٢٦٩ – ٢٧١.

بالأسكندرية – وهى مدرسة لتعليم أصول الدين – محل كليمنت، فأصاب كثيرا من النجاح، واستطاع أن يجتذب إلى علمه وبلاغته الكثير من الطلبة. وقد قام أوريجين بعدة رحلات آخرها رحلته إلى فلسطين عام ٢٥٠م، وفيما هو هناك شب اضطهاد هائل، فاعتقل وعذب عذاباً أليماً تحمله بشجاعة وصبر. غير أن التعذيب ألحق الضرر بجسده الواهى، فتوفى بمدينة صور، بعد أن أعلن عن رجوعه عن الآراء التى غيرت السلطات عليه. وقد دون أوريجين مؤلفات ضخمة، معظمها شروح على الكتب المقدسة، وحرصاً منه على تحقيق نصوص الكتب المقدسة تعلم اللغة العبرية، وقابل بين الترجمات اليونانية بعضها وبعض، وبينها وبين الأصول؛ وقد عرف عنه صدق ولائه للكنيسة، وشدة تمسكه بالإيمان الصادق، والتوجه بكل إحساسه وشعوره نحو الحياة الروحية(١). هذا وقد احتوى كتابه المشهور «المبادىء الأولى» Peri archon أول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية، أما كتابه الشذرات Stromateis فقد أثبت فيه أن الثقافة الكلاسيكية أمر ضرورى لفهم العقيدة المسيحية والكتاب المقدس فهما صحيحا(٢).

أما القديس جيروم Jerome، فقد ولد حوالى سنة ٣٤٠م بالقرب من أكويليا، من أبوين على المذهب الكاثوليكى. ونال قسطاً وافراً من التعليم فى مدينة روما، ودرس الآداب اللاتينية واليونانية دراسة عميقة؛ وخلال دراسته فى روما عاش عيشة صاخبة، بيد أنه عندما بلغ سن العشرين اعتنق المسيحية وتمسك بمبادئها تمسكاً شديداً؛ وفى أكويليا كون جماعة من الأخوة الزهاد النساك، انضم إليها زمرة من أصحابه. ثم ترك جيروم عائلته، وأخذ معه مكتبته إلى الشرق الأدنى، حيث دخل أحد الأديرة فى أنطاكية فى عام ٣٧٤م. وهناك انتابته حمى شديدة، رأى خلالها رؤية غيرت مجرى حياته، فانسحب من الدير ليعيش عيشة النساك فى الصحراء. ولما كان ميله للدراسة يملأ جوانحه، فقد انتهز الفرصة وتعلم اللغة

---

(١) Katz, Decline of Rome., p. 56.;
يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٧٤ – ٢٨٤.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، مج ٣، جـ ٣، ص ٣٠٩ – ٣١٣.

العبرية؛ وفى عام ٣٨١ زار مدينة القسطنطينية، وقدر له فى تلك المدينة أن يدرس على يد اللاهوتى العظيم جريجورى النازيانزى (٣٢٩ – ٣٨٩) Gregory of Nazianzum. وعندما زار مدينة روما فى العام التالى (٣٨٢) قابل البابا داماس الأول (٣٦٦ – ٣٨٤) الذى شجعه على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية، ذلك أن الكنيسة قد أدركت آنذاك أن الترجمات اللاتينية المختلفة للكتاب المقدس كانت غير جيدة، لكثرة ما جاء بها من أخطاء، فضلاً عن اعتمادها على مصادر غير جديرة بالثقة. وقد قام جيروم فعلاً بتنقيح النسخة اللاتينية بعد أن رجع إلى مصادر يونانية وعبرية، ثم أخرج للكنيسة ترجمة منقحة صحيحة للعهد الجديد باللغة اللاتينية، وهى الترجمة التى أضحت النسخة المعتمدة فى الكنيسة فى العصور الوسطى والعصر الحديث(١). ثم خرج جيروم من روما فى عام ٣٨٥ إلى أنطاكية، واستقر به المطاف فى بيت لحم بفلسطين، حيث أنشأ ديراً للرهبان صار هو رئيسه، كما أنشأ نزلا لحجاج الأراضى المقدسة، وأتاحت له الظروف فرصة كافية ليواصل دراساته باللغة العبرية والكلدانية، فضلاً عن كتابة لعديد من الرسائل التى أعطتنا لمحات حية عن الحياة آنذاك، ولم ينقطع جيروم عن الكتابة، حتى حضرته الوفاة سنة ٤٢٠(٢).

ومن آباء الكنيسة القلائل الذين تعتز بهم المسيحية القديس أمبروز St. Ambrose، الذى ولد فى مدينة تريير (تريف) Trier فى بلاد الغال حوالى عام ٣٤٠م، من أسرة رومانية عريقة، ونال حظاً وافراً من التعليم، فدرس القانون والآداب اللاتينية واليونانية فى روما، وقد أجمعت الظروف على أنه سيحظى بمكانة مرموقة فى المجتمع، وفعلاً عندما خلا منصب رئيس أساقفة ميلان فى عام ٣٧٤م، عين فى ذلك المنصب بعد أن حصل على تأييد إجماعى شامل، ويروى أنه أثناء النظر فى انتخاب رئيس الأساقفة صاح طفل صارخاً : «أمبروز للأسقفية»، الأمر الذى عزز مركزه فى شغل المنصب؛ وسرعان ما تخلى امبروز عن زخرف

---

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, A Hist. of the Western World., p. 144.

(٢) Wand, A Hist. of the Early Church to A.D. 500., (London, 1977), pp. 206 - 210.

الحياة، وكرس حياته لخدمة الكنيسة، وكانت الثروة موضع احتقاره، بدليل أنه بادر بالتخلى عن الميراث الذى ورثه عن أبيه، ووزعه على الفقراء والمحتاجين[١]. وكان لتربيته فى جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين فى الأمبراطورية أثر بعيد فى آرائه، إذ لم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة الرومانية، لاعتقاده أن المسيحية سوف تكون مصدر قوة للأمبراطورية، وأنه كما انتصرت الكنيسة على الوثنية، فسوف تنتصر الأمبراطورية المسيحية على الجرمان المتبربرين؛ ويرى امبروز أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدى الأساقفة الذين يخضع لسلطانهم جميع الناس حتى الأمبراطور نفسه[٢]. وقد أعطى المثل على قوة نفوذ الكنيسة أمام الأمبراطور عندما أرادت جستينا Justi-na أرملة فالنتنيان الأول فى عام ٣٨٥م – وكانت على المذهب الآريوسى – الاستيلاء على أحد كنائس ميلان لصالح الآريوسيين، ولكن امبروز اتخذ موقفاً حاسماً ضدها، إذ أمر جموعاً ضخمة من أتباعه بوضع أيديهم على الكنيسة موضع النزاع، كى يمنع جند الأمبراطورة من الاستيلاء عليها بالقوة، وقد حقق امبروز ما أراد، إذ لم تلبث القوات الأمبراطورية أن فكت حصارها عن الكنيسة. وتشير حادثة أخرى لما بذله أمبروز من جهد فى مواجهة حكم الأباطرة المسيحيين، عندما أجبر الأمبراطور ثيودوسيوس الأول أو العظيم على طلب المغفرة، لارتكابه مذبحة قام بها فى ثيسالونيكا (سالونيكا) Thessalonica فى بلاد اليونان فى عام ٣٩٠ راح ضحيتها سبعة آلاف من سكان تلك المدينة، عقاباً لهم على ثورة قاموا بها وقتلوا حاكمها، وهو بهذا العمل أكد أن الأباطرة عليهم الخضوع لسلطة الكنيسة[٣]، الأمر الذى جعله يحتل مكانة بارزة فى النضال الذى دار بعد ذلك بين البابوية والأمبراطورية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.

---

(١) Wand, op. cit., p. 203.

(٢) دوسن، تكوين أوربا، ص ٥٣.

(٣) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 143 - 144; Wand, op. cit., pp. 203 - 205.

وآخر آباء الكنيسة العظام، بل وأعظم مفكرى عصره على وجه الإطلاق، هو القديس أوغسطين St. Augustine الذى لازال ظله يخيم على الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولد سنة ٣٥٤ فى تاجستا شرقى نوميديا Numidia (سوق الأخرس فى الجزائر حالياً)، من أب وثنى وأم مسيحية، ونال قسطاً وافراً من التعليم وأجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون فى قرطاجنة، ثم تركه بعد ذلك إلى البلاغة؛ ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، غادر قرطاجنة إلى روما. وهناك تلوث شبابه بالرذائل التى تحدث عنها فى صراحة تامة، حتى أنه رفض اختيار زوجة له، وفضل أن يتخذ له عشيقة، عاش وفياً لها حتى افترقا فى عام ٣٨٥م، وقد أنجبت منه طفلاً. وإذا كانت حياته الخاصة سارت على هذا المنوال. إلا أن حياته العقلية كانت علي النقيض تماماً، فقد ساقته تلك الحياة إلى الفلسفة الوثنية ولكنها لم تشبع حاجته، فتحول عنها إلى الأفلاطونية المحدثة، ثم استهوته تعاليم المانوية؛ وهنا نلاحظ أن رحلة الشك هذه لم تصل به إلى الحقيقة المنشودة. وفى عام ٣٨٣ استمع أوغسطين لعظات القديس امبروز كبير أساقفة ميلان، فأثار اهتمامه شرح العهد القديم، واشتد تأثره بالمسيحية تأثراً أرضى عاطفته الدينية، وخلصه من موجة الشك العارم التى كانت تجثم على صدره. وفى عام ٣٨٧ عمده أمبروز، وعزم العقد على تكريس حياته لخدمة الدين المسيحى، فلما وصل إلى أفريقية باع ما تركه له أبوه من ميراث صغير، ووزع ثمنه على الفقراء. وفى ٣٩١ اختير أسقفاً لمدينة هبو (بونا الحالية فى الجزائر)، وظل يشغل ذلك المنصب، فى الوقت الذى واصل فيه كتاباته اللاهوتية، حتى توفى سنة ٤٣٠م أثناء الحصار الذى فرضته جماعات الوندال الجرمانية على تلك المدينة(١).

ومن مؤلفات أوغسطين كتابان يعدان من أعظم كتب الأدب واللاهوت، فاعترافاته Confessiones وهى من أروع كتب السيرة الذاتية التى بقيت من العالم القديم، وأوسعها شهرة، وصف فيها ما اقترفه من ذنوب وآثام فى صباه،

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., pp. 144 - 146.;
برنتن، أفكار ورجال، قصة الفكر الغربى، ص ٢٣٤.

ثم قصة هدايته وتوبته إلى الله فى وضوح. أما أعظم مؤلفاته أهمية كتابه الآخر «مدينة الله» De Civitate Dei، الذى شرع فى كتابته سنة ٤١٣م، وانتهى منه سنة ٤٢٦. ويعتبر هذا الكتاب فلسفة للتاريخ وصورة للأفكار اللاهوتية والسياسية، التى سيطرت على أوربا العصور الوسطى حتى عصر توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر الميلادى. وقد دفعته الكارثة التى حلت بمدينة روما على يد الاريك القوطى سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون فى كل مكان من الامبراطورية أن المسيحية هى سبب ما حل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة فى قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أن ما حل بروما لم يكن إلا عقاباً لها على ما إرتكبته من آثام وشرور كامنة فى ثنايا الآلهة الوثنية وتقاليدها. ولم يجد صعوبة في إثبات أن كثيراً من المدن والأمبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل مجيء المسيحية بزمن طويل. وقد ذكر أوغسطس فى كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معاً : مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير؛ أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله. وتجدر الإشارة إلى أن البابوية اعتمدت على كتاب مدينة الله فى إبراز تفوق مدينة الله – أى الكنيسة وعلى رأسها البابا –، على المدينة الأرضية – أى الدولة وعلى رأسها الأمبراطور –؛ وهكذا قرر أوغسطين مبدأ أن تكون سلطة البابا ممثل الله على الأرض ورأس الكنيسة، فى منزلة أعلى من تلك التى يتمتع بها الأمبراطور وهو الحاكم العلمانى، الأمر الذى يترتب عليه خضوع الدولة للكنيسة(١).

---

(١) Lyon & Herbert and Hamerow, op. cit., p. 146;
هارتمان وباراكلاف، الدولة والأمبراطورية فى العصور الوسطى، ص ٤٥ – ٤٦؛ برنتن، أفكار ورجال، ص ٣٦؛ هرنشو، علم التاريخ، ص ٢٧ – ٢٨.

الأريوسية والأثناسيوسية :

نشأ فى المسيحية فى القرن الرابع الميلادى اختلاف فى وجهات النظر حول المسائل اللاهوتية، وهو أمر من الطبيعى حدوثه. والجدير بالذكر أنه عندما كان يثار جدل حول قضية ما، ويشتد ويتفاقم، ويؤدى فى النهاية إلى نزاع، كان لابد من عقد مجمع من الأساقفة يقوم بدراسة موضوع الجدل ووضع الحل المنشود. وفى أثناء ذلك القرن شهدت المسيحية نزاعاً بين رجلين من رجال اللاهوت – وهما آريوس وأثناسيوس – فى مدينة الأسكندرية، ترتب عليه انقسام أتباعها إلى مجموعتين، المجموعة الأولى وهى التى تناصر آريوس أطلق عليها الآريوسية، والمجموعة الأخرى وهى التى تناصر أثناسيوس أطلق عليها الأثناسيوسية. وقد احتدم الخلاف بين الآريوسية والأثناسيوسية حول العلاقة بين الرب والمسيح، أو بين الأب والإبن، إذ نادى آريوس وكان قد بدأ حياته باعتناق الأفلاطونية المحدثة القائلة أن الله واحد لا يتجزأ، أن الابن (المسيح) أقل من الأب فى الجوهر، ووضعه بين بقية المخلوقات، حقيقة قال بسمو هذا المخلوق، ولكنه وضعه بين سائر البشر، وأقرت الآريوسية أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، أى أن وجود المسيح لاحقاً للإله فى الزمن ونابعاً منه، أو أدنى من الإله الآب بشكل ما؛ بيد أن الأثناسيوسية رفضت هذا الرأى قائلة أن الأب والابن من جوهر واحد أو مادة واحدة Homoousios. وهنا نلاحظ أن الآريوسية التى تميل إلى التوحيد فى كثير من نواحيه، اهتمت فى المقام الأول بمخاطبة عقول المثقفين وإقناعهم على حين وجهت الأثناسيوسية جل اهتمامها تجاه الغالبية العظمى من البسطاء. وبعبارة أخرى، استهدفت الآريوسية جعل العقيدة منطقية تتجاوب مع العقل، أما الأثناسيوسية فهدفها نابع من المشاعر والأحاسيس العاطفية التى احتلت المكانة الأولى فى نظرها. وعندما اشتد الجدل والنزاع بين الجانبين حول هذه المسألة، دعا الأمبراطور قنسطنطين العظيم إلى عقد مجمع فى مدينة نيقية فى غرب آسيا الصغرى للبت فى هذه المسألة. وكان أن عقد المجمع المسكونى الأول فى ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ برئاسة الأمبراطور لمناقشة تعاليم آريوس وأثناسيوس، حضره جمع

هائل من الأساقفة بلغ عددهم حوالى ٢٧٥ أسقفاً، فضلاً عن عدد كبير من رجال الدين أقل درجة. وفى هذا المجمع عرض كل فريق آراءه ووجهة نظره، وبعد نقاش طويل تجلت فيه مقدرة أثناسيوس وبلاغته، انتهى المجمع إلى رفض آراء آريوس ونفيه إلى تريير فى بلاد الغال وإدانة أنصاره بالهرطقة(١).

غير أن النزاع بين الآريوسية والأثناسيوسية لم يقف عند هذا الحد، فقد شرع قنسطنطيوس – ابن قنسطنطين وخليفته – يبحث بنفسه أبوة المسيح، حتى انتهى رأيه إلى اعتناق مذهب آريوس، وما لبث بعد أن نجح فى توحيد الأمبراطورية، واستقرت له الأمور سنة ٣٥٣م، أن قرر طرد أثناسيوس من كرسى الاسكندرية، وإطلاق سراح آريوس من منفاه، ورجوعه إلى الاسكندرية(٢). غير أن أثناسيوس ذلك الرجل الذى يرجع إليه معظم الفضل فى استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث Trinitarian doctorine، لم يركن إلى الكسل بعد تقاعده الاضطرارى، فقد دأب على كتابة بعض المؤلفات التى تبحث فى اللاهوت المسيحى، كما أنه لم يلق بسلاحه فى وهدة اليأس، إذ رجع إلى الأسكندرية فى عام ٣٦٢، ودعا إلى عقد مجمع أقر الاعتراف بعقيدة نيقية القائلة بأن جوهر المسيح مساو لجوهر الله، وبموجبه عاد إلى مقر أسقفيته وسط مظاهر الفرح والتهليل؛ ولكن الأمبراطور چوليان المرتد الذى كان يبغض المسيحية والمسيحيين جميعاً ويخص أثناسيوس بكراهية خاصة، أبدى دهشته من الجرأة التى مكنت أثناسيوس من العودة إلى الأسكندرية دون أخذ رأى الامبراطور، ولذلك استنكر تصرفه، وأمر بإبعاده عن منصبه ونفيه من مصر فى أكتوبر سنة ٣٦٢م(٣). وبعد أن توفى چوليان فى العام التالى (٣٦٣) أتى چوفيان إلى عرش

(١) Jones, op. cit., pp. 42 - 43; Painter, op. cit., pp. 16 - 17.

أما لفظة «الهرطقة» فهى كلمة يونانية الأصل معناها الرأى المستقل أو الاجتهاد الفردى، وقد استخدمتها الكنيسة لدمغ المخالفين لرأى الكنيسة، وما اتفق عليه فى المجامع الكنسية المبكرة.

(٢) Jones, op. cit., p. 54; Wand, op. cit., pp. 171 - 172; Piganiol (André), L'Empire Chrétien, (Paris, 1947), pp. 94 - 95.

(٣) Wand, op. cit., p. 172; Piganiol, op. cit., p. 140;

جيبون، اضمحلال الأمبراطورية الرومانية، جـ ٢، ص ٧٠ – ٧٣.

الأمبراطورية، ولم يلبث أن أعلن اعتناقه المسيحية على المذهب الآثناسيوسى، فى الوقت الذى خرج فيه أثناسيوس من عزلته عندما بلغه خبر موت چوليان، وعاد مرة أخرى إلى كرسى أسقفية الأسكندرية، وظل فى منصبه إلى أن مات فى الثمانين من عمره، بعد عشر سنوات من عودته[١].

(١) Wand, op. cit., pp. 173 - 174.